مقدمة

في الوجودية

ان من المسلم به في تاريخ الفكر الانساني والفلسفي، ان كل نظرية لا بد ان تخلق بمجرد انتشارها رد الفعل المعاكس. ان كل نظرية فلسفية متى بلغت اوج شمولها واستطاعت ان تسير الافكار وتتسرب الى الافئدة تصل بذلك الى درجة يصبح معها ظهور رد الفعل المناوئ لهذه النظرية امراً محتماً.

ولعلنا لا نستغرب عند ذلك ان يقوم ارسطو في العهد اليوناني ضد استاذه افلاطون ويكون له الدّ الاعداء؛ ولا نستغرب ان تتبع القرون الوسطى

ثورة جامحة على عقلية تلك القرون وردة على جميع العلوم والافكار المتمدة في تلك العهود فكان رد الفعل متطرفا على لسان ديكارت القائل في اوائل القرن السابع عشر : « لا اريد ان اعتبر انه وجد قبلي فلاسفة ومفكرون » . فقد كان رد الفعل قويا حتى ان ديكارت لم يرد تحاشياً ، منه لكل ما هو قديم ، ان يعتبر ان ارسطو وافلاطون وغيرهما قد وجدا . ولعلنا نفهم السبب في ذلك ساعة نطّلع على ما وصل اليه التفكير في العهود الوسطى المظلمة من قحط وتقليد ، حتى انه كان يكفي ساعة يشتد النزاع على فكرة او يطول النقاش حول مبدأ ما دون الوصول الى نتيجة ، كان يكفي عندها ان يقال « قال المعلم ... كذا » فتعتبر المناقشة منتهيه ويصل الجميع الى اتفاق دائم ، والمعلم المقصود هنا هو أرسطو الذي بلغ من سطوة فكرته

وانتشار آرائه بين الاوساط الفكرية ما قتل كل محاولة لمناقشة آرائه أو تحويلها، ان كل النشاط الفكري انحصر في شرح آرائه وتوسيعها وتقريبها للافهام. لذلك، كما قلنا، كان الارتداد قوياً بمقدار قوة ارسطو، وكانت الثورة عليه عارمة بمقدار ما كان تأثيره عاماً.

نخلص من ذلك الى توضيح فكرتنا وهي انه لا بد لكل فكرة اذا دانت لها الافكار ان تلاقي عدواً متطرفاً بقدر تطرفها يقاومها وينكر عليها كل فضل.

وفي القرن التاسع عشر، بعد تقدم العلوم الطبيعية الايجابية على يدي باستور وغيره وبعد الوصول الى اختراعات واكتشافات جديدة (آلة البخار ...) ظن الفكر الانساني ان الحقيقة التي كان يبحث عنها قد وجدها في هذه العلوم، وهكذا تولد الايمان المطلق

بنتائج البحث العلمي المجرّد عن الأفكار الفلسفية البحتة ولم يجد الانسان الحي دوراً يقوم به الا دور المكتشف لهذه المعلومات ، واما نفسيته المتألمة الشاعرة ، واما عواطفه ومكنوناته ، واما اطماعه وآماله واما ما يربطه بعالم آخر وايمان بالله خالق مقتدر ، اما كل ذلك فلا مجال له والسطوة كلها للعلم والاختبار ...

ضد هذا التيار المادي البحت الذي انكر كل قيمة للنفس والروح ، قام تيار مضاد فصل المادة عن الروح وعمد الى تحليل النفس الانسانية فوجد فيها جميع القوى الخلاقة واعتمدها اساساً لكل تقدم وجوهراً خلاقاً لا عرضاً ينكر وجوده ويضيع مفعوله...
ضد التيار المادي قام برجسون Bergson ، المفكر الفرنسي الكبير في اوائل القرن العشرين يعيد للقوى

obeikandl.com

الروحية ما افقدها اياه التيار المادي الجارف .

وتاريخ الفكر الانساني لا يختلف عن هذا المرور من فعل قوي جارف ، الى رد فعل متطرف جارف ، ولا تلبث بعد ذلك ان تظهر النظرة المعتدلة التي تقف حداً وسطاً بين التيارين فتكون التركيب الذي يجمع الاولى الى الثانية ...

. . .

- والنظرة الوجودية الى الكون لا تختلف عما ذكرنا ، ولا تشذ عن القاعدة التي اعتمدنا .

فالانسان الفرد لم يجد عند النظريات الفلسفية التي تعاقبت مدى قرون طويلة ، الصدى الذي يتجاوب مع آماله ، ولم يجد اي اهتمام بفرديته وعواطفه وتفكيره ووجوده الشخصي .

obeikandl.com

فكل نظرية فلسفية كانت تعتبر الافراد متشابهين ولذلك كانت الدراسة الفلسفية بدل ان تنصب على الوجود الفردي ، تعتمد حيناً المجتمع فرداً ينصهر فيه كل فرد ، وتعمد حيناً آخر الى تجريد الفرد من كل صفاته الفردية حتى يصح أن يعتبر مطابق الصفات لاي فرد آخر فيصح عندها ان يكون مجال بحث .

اما الفرد المتميز بفرديته واخلاقه الخاصة وشخصيته الخلاقة ووجوده الذي لا يصح ان يعتبر نسخة مطابقة لاصل ، هـذا الفرد لم يكن يجد عند جميع النظريات الفلسفية المجردة عن الحياة اي تجاوب مع آلامه وآماله . كان الفرد غريباً عن اجواء التجريد . وكان التجريد الفلسفي يستبعد الفرد لانه يريد اقامة بناء فلسفي شامخ يطمع في شرح الكون واسراره واسباب الحياة وقوانين الوجود والحركة ، الخ ...

وهكذا ضاع الفرد واصبح مجرداً حتى انه يصح ان نعتبر ان اصحاب النظريات الفلسفية الشاملة هم اول من لم يكن يؤمن بها .

يقول كيركجارد Kierkegaard أول فيلسوف وجودي في اوائل القرن التاسع عشر ، منتقداً هيجل Hegel : ان هيجل هو اول من لا يؤمن ببنائه الفلسفي لانه لم يكن يعيش بناءً على نظرياته الفلسفية ان هيجل الفرد الانساني المتميز بعواطف وآراء ووجود شخصي لم يكن يرضى ان يذيب فرديته الخلاقة ويجيلها لحظة من لحظات تطور الفكرة المجردة التي تخلق وتبدع .

وعلى ذلك نقيس فنقول ان كل محاولة من نوع محاولة هيجل مكتوب لها الفشل ، لانها لا تقيم وزناً

obeikandl.com

للفروق الفردية وتحاول ان تشرح الكون والوجود والحياة والنفس بناء على فكرة واحدة وضعها صاحب المذهب الفلسفي نصب عينيه قبل ان يباشر الدرس .

وكانت المذاهب الفلسفية المجردة قد توالت منذ العهد اليوناني حتى بلغت اوج التجريد عند « كانت Kant » ثم عند هيجل ، وهي في مجموعها تخضع لروح واحدة وطريقة لا تختلف اختلافاً بيناً .

لذلك كان رد الفعل قوياً جارفاً . فقام كيركجارد في اوائل القرن الماضي في الدنيمارك يحارب باقصى قواه هذه النزعة لتجريد الفرد من فرديته ، وانصب في اكثر انتقاداته على هيجل ممعناً فيه تهشيماً وتحطيماً .

ولم يكد ينتهي من نشاطه السلبي هذا حتى انكب يبني نظرة جديدة في الفلسفة : فكانت الوجودية

بمفهومها الحديث .

فنقطة الانطلاق عند الوجودية هي الوجود والوجود لا يكون الا فرديا .

والوجودية تعتبر ان كل وجود سابق لكل ماهوية أو جوهر . والانسان ليس فكرة يتخيلها خلاق فيبعث الحياة فيكون الوجود . الوجود سابق للجوهر . فانا موجود ثم انا اخلق جوهري . انا موجود ثم انا اخلق صفاتي واعمالي .

ولكي اكون كذلك وجب ان اكون حراً . والوجود تعتبر انني حر كل الحرية . وليس لي اختيار في ذلك : فانا مجبر على ان اكون حراً ...

والحرية التي اتمتع بها تجعلني قادراً على ان اعتنق ما أريد وافعل ما اريد على ان اتحمل مسؤولية اعمالي .

من هنا يبدأ القلق . فحرية الانسان تستتبعها حتما مسؤولية والمسؤولية تخلق الكآبة .

والانسان لا يجب ان يعتمد على أية فكرة أو أية قيمة فالقيمة الوحيدة هي وجوده .

انا موجود ولا عذر لي ، انا موجود ومتألم من وجودى وان سبب المي هي حريتي .

وهكذا عرفت الوجودية مكانها في تاريخ الفلسفة ...

ولم يقم للوجودية من يدافع عنها بعد كيركجارد اللهم الا اذا صح اعتبار نيتشه مع بعض التوسع بالفكرة وجودياً .

وكان القرن الحالي وكانت الازمات الاقتصاديه والانسانيه وكانت الحروب التي عصفت بالعواطف واضاعت القيم وهدرت المبادىء السامية التي كان

obeikandl.com

الانسان يؤمن بها .

ووقف الفرد الانساني محطم القلب ، يتقطر الماً ويأساً وكآبة ، يتطلع خلفه فيجد الاحتقار الخالص لكرامة الفرد ، ويتطلع امامه فيرى تجاوزاً لحرية الفرد ويستشف المستقبل فيري الظلمة تهدده من جديد ...

لم يعد له ادنى أمل ولم يعد له اي مرتكز ... آمن بالقيم فهدر الانسان القيم ، آمن بالعلم فاحتقره العلم وانقلب مسيطراً على مصير الانسان بعد ان كان من نتاج الفكر الانساني ، آمن بالمجتمع فرأى بعينه المجتمعات لا تقيم وزناً للفرد ولوجوده . بل هي تسعى لخلق دولة محاربة مسيطرة مضحية في سبيل ذلك بكل حرية فردية ، وكل كرامة وقيمة ذاتيتين ...

وهكذا ارتد الانسان الوجودي على نفسه يستطلع

ما فيها من مقدرات . وهكذا عاد الانسان عن ايمانه بالمجتمعية ، وبالدولة وبالافكار الانسانية الشاملة وبالحقائق التي لا تزول وبالقيم التي لا تنتقص .

هكذا ارتد الوجودي الى نفسه معتبراً انها اساس كل خلق وانها ميزان كل قيمة وانها معيار كل فكرة.

ما قيمة الفكرة التي تتعالى على الفرد وتتعداه ، اي خلق او اي اكتشاف لم يكن اكتشاف فرد بالذات أي مذهب لم يكن مذهب فرد معين ؟.

ما قيمة الفكرة اذا لم تنصهر في نفس فرد معين فتصبح منه ؟.

اين الخلق الذي ليس خالقاً فرديا ؟ اين العطاء الذي ليس عطاء فرد ؟...

هذه نقطة انطلاق الوجودية ...

لم يعد للفكر المجرد قيمة العاطفة الجياشة ، لم يعد للعقل والمنطق مفعولا كمفعول القوى النفسية الفردية الخلاقة .

لم يعد الكون يخضع لنظام معين او ميزان محدد ، نحن نعيش في عالم الممكنات . لا شيء واجب الحدوث لان تلك النظرية او ذلك العلم يحتمان ذلك ، كل شيء يخضع للحرية الفردية الانسانية الخلاقة ...

لم يعد الدين يفرض على جميع الافراد على حد سواء ... الدين يجب ان يتمثله فرد على النحو الذي يريد ...

وهكذا عرفت الوجودية الحديثة اتجاهين : اتجاه ملحد لا يؤمن بالاله الخلاق . واتجاه مؤمن يسعى ليتمثل الفكرة الالهية أو ليعيش هذه الفكرة اشبه ما يكون بطريقه الصوفيه ...

obeikandl.com

وعلى رأس المذهب المؤمن نجد الفيلسوف الدانيماركي سورين كيركجارد المولود في كوبنهاجن عام ١٨١٣ . ثم التحق يدرس اللاهوت في بلده ، والحادث المثير في حياته هو الغاء خطبته لرجينا اولسن ، وكان هذا الانفصال بين الحبيبين عام ١٨٤١ . وكانت حياته مضطربة اذ كان شديد الحاسية ، شديد الايمان منطوياً على نفسه . . .

وله كثير من المؤلفات واشهرها « واحد من اثنين « de deux choses l'une » . « Post - scriptum » « le concept d'ironie » « Crainte et tremblement » ... الخ ... وكانت وفاته عام ١٨٥٥ . . . وهو في الثانية والاربعين من عمره . . .

ومن فلاسفة الوجود ، المعاصرين نذكر : كارل

obeikandl.com

ياسبرز Karl Jaspers وهو رئيس جامعة هيدلبرج في المانيا حاليا . وقد بقي مدة طويلة استاذا لمادة الفلسفة في جامعات المانيا .

واهم مؤلف عنده هو كتابه : « فلسفة الوجود » « Existenz philosophie » وقد ظهر بثلاثة مجلدات عام ١٩٣٢ .

ونذكر ايضا غابريل مارسيل Gabriel Marcel وهو كاتب مسرحي فرنسي معاصر ايضا . ويزاول الى جانب ذلك النقد الادبي والفلسفي . وقد اعتنق الكاثوليكية وهو في حوالي الاربعين ...

وقد ظهر كتابه « اليوميات Journal » . عام ١٩٢٧ .

obeikandl.com

اول الوجوديين الملحدين هو الفيلسوف الالماني المعاصر مارتن هيديجر Martin Heidegger . وكان في اوائل حياته راهبا ثم انقلب على الدين واخذ يدرس الفلسفة في ماربورج Marbourg ثم فريبورج Fribourg ومؤلفه الاساسي « الكائن والزمن Zein und Zeit صدر عام ١٩٢٧ . انضم الى الحزب النازي عام ١٩٣٣ ولم يمكث فيه طويلاً . وهو يعيش اليوم في عزلة في الغابة السوداء بالمانيا ، ويعتبر هيديجر حجة في اللغة الالمانية واصولها .

واكبر فلاسفة الوجود على الاطلاق هو بلا شك الفيلسوف الفرنسي المعاصر جان بول سارتر صاحب هذ الكتاب .

obeikandl.com

وجان بول سارتر ولد عام ١٩٠٥ فهو اليوم في التاسعة والاربعين من عمره وقد درس مدة عامين التيارات الفلسفية الالمانية في المانيا . ثم عاد يدرس في كلية لاون Laon ، ثم في كلية الهافر Havre ، ثم في كلية باستور واخيرا في كوندورسيه Condorcet وهو يكتب للمسرح ويؤلف روايات الى جانب اهتمامه بالفلسفة ولكن رواياته ليست بعيدة عن فكرته الفلسفية واهم مؤلفاته على الاطلاق هو كتابه : « الكائن والعدم » « L'être et le néant » الى جانب العديد من الروايات والمسرحيات . . .

. . .

والكتاب الذي نترجمه الان هو محاضرة القاها جان بول سارتر منذ سنوات ثم عمد الى توسيعها محاولا بذلك الدفاع عن الفلسفة الوجودية التي كثيرا

obeikandi.com

ما تتهم بافساد الاخلاق والدعوة الى الانحلالية البغيضة.

فالرأي السائد ان الوجودية لا تعدو ان تكون دعوة سافرة الى الخلاعة والتبذل وعدم الانقياد لاي قيمة اجتماعية أو انسانية ...

وجان بول سارتر يحاول في هذا الكتيب أن يرد على الانتقادات الموجهة لفلسفته خاصة وللفلسفة الوجودية عامة تاركا لخصومه مجال الاجابة ...

المترجم

obeikandl.com